فالقيتَ الجرانَ على ذراعٍ بجيشٍ كلُّهم بطلٌ مشيعُ
فجاء الفلّ منك وهم ثلاثٌ اسيرٌ او كسيرٌ او ذبيحُ
وقد قُسمتْ بلادهمُ بعدلٍ وذوروهُ كما قُسمَ الوطيحُ
فلا تعلمْ بان الجرح يُكوى طريًّا بالمحاور او يتيحُ
ابا زيدٍ اذا تُبقي عليهم بصفحٍ ربّما ندم الصفوحُ

ولهُ يصف بستانًا للوزير ابي عبد الله محمّد ابن ادريس :

يا مترلًا قد خصّصتْهُ سعادةٌ واستبدلتهُ انعمًا من أبؤسِ
اصبحتَ مأوى للوزير محمّدٍ نجل الادارسةِ الكرام الخرسِ
انسانُ عين الكون من لبست به رُتب العلى اجبى واجمع ملبسِ
يا ايُّها البحر الذي من فيضهِ كلّ الاماني والقى للناسِ
يحميك ذا القصرُ الذي اشأتهُ بالسعد في عام انشراح الانفسِ
لا زلتَ تشرف من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندسِ
والدهر يخدم جانبيك ويجتبي بجلالكَ العالي الاعزّ الاقدسِ (له بقيّة)

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

٢ المساواة

قرّبنا من شفتيك كأس الحريّة فذقت حلوها ومُرّها وعرفت انّ خمارها ربّما مُزجت بخمرها والعاقل من تتبّع خيرها وتجنّب شرّها. فدعنا الآن نمحص لفظة ثانية بنار الانتقاد لم نمهدها سابقًا في افواه الشرقيين فدارت اليوم على ألسنة الناس فكادوا يشاون من طيب عبيرها. تلك كلمة « المساواة » يردفونها بلفظة الحريّة ويبنون عليها آمال سعادتهم الارضيّة

فما قولنا بالمساواة ؟

لا مرية انّ البشر من حيث طبيعتهم متساوون يكوّنهم الله اجنّةً ثم يخرجهم من قبور احشاء أمهاتهم بالعري والضعف وينشأون بين الاوجاع الى ان يبلغوا سنّ الحداثة ثم الشباب ثم الكهولة ثم تأخذ قواهم بالانحطاط وتحدق بهم بلايا الشيخوخة

ثم الهرم حتى يعيدهم الموت الى التراب الذي منهُ صوَّرهم الخالق . تلك المساواة البشريَّة لا يختلف فيها السيّد وعبدهُ والملك ومملوكهُ . سأل الاسكندر ناسكًا رآهُ مكبًّا على قبرين مفتوحين وجمجمتين يابستين ماذا يصنع امام تلك الرمم . فاجابهُ الناسك : افحص هذه العظام لعلّي اعرف ما امتاز بهِ السيّد عن العبد والسلطان عن المملوك فلم اجد بينها فرقًا . فهذه المساواة الاولى لكل امرء ان يفتخر بها ان شاء فلا يمانعهُ احد ولا يعارضهُ معارض . قال عليّ بن ابي طالب :

الناس من جهة التمثال اكفاء ابوهمُ آدمٌ والامُّ حوَّاء
فان يكن لهمُ من اصلهم شرفٌ يفاخرون بهِ فالطين والماء

ولما فوق هذه المساواة مساواة أُخرى تلحق بمساواة الطبيعة وتكملها وهي مساواة كل البشر في اسباب الحياة الجوهريَّة . لان الله اذ خلق الانسان وجعلهُ احد اعضاء الهيئة الاجتماعيَّة اراد لهُ ما تقوم بهِ حياتهُ ولا غنى للانسان عنها من الهواء والنور وبلغة الطعام اليومي والكسوة الضروريَّة وفي ذلك يتساوى كل بني آدم ولا يحقّ لأحد ان يحرم اخاهُ من هذه الضروريَّات التي بها قوام الحياة

ويتساوى ايضًا كل البشر بازاء الشريعة سواء كانت الهيئة او بشريَّة . فانَّ الشريعة التي تحابي الوجوه وترجّح الغنيّ على الفقير وتنتصر للشريف على المشروف وتهضم حقوق البعض لتغلّب حقوق البعض الآخر ليست بشريعة بل هي جورٌ وعدوان . فحاشا الله بشريعتهِ ان يقضي بيزانين ويجور في حكمهِ ذرَّةً واحدة . امَّا الشرائع البشريَّة فان حادت عن القسط والعدل بطل فعلها وعدمها خيرٌ من وجودها . فالمساواة من هذا القبيل لازمة لازبة ويحقّ لكل انسان ان يطالب بها ويدافع عنها

كلُّ هذه وجوه المساويات مبنيَّة على حقوق الطبيعة وسُنن العدل اذا هضمها الانسان أثم وشوَّش النظام الذي رضمهُ الخالق في الهيئة الاجتماعية على انَّ المجتمع البشريّ ليبلغ غايتهُ وهي عمران الشعوب وسعادة الافراد يحتاج الى المساواة المدنية

فالمساواة المدنية تعتبر كلّ افراد الدولة متساوين في الفرائض والواجبات والحقوق مع قطع النظر عن اجناسهم واحسابهم واديانهم فلا تعتبر الّا نسبتهم الى خدمة العموم فتخوّلهم الانعامات نفسها والامتيازات عينها على مقتضى اهليَّتهم وعلى حسب

ما يُجدون العموم غمًّا بمعاملاتهم. فسواء كان الانسان غنيًّا او فقيرًا شريفًا او مشروفًا تابعًا لدين دون آخر مع مراعاته لقوانين البلاد وقيامه بكل واجباته الشرعيَّة فالشريعة تساوي بين الجميع ولا تفضّل الواحد على الآخر. وانَّما العدل يقتضي انَّ الذي يخوّل حقوقًا ممتازةً يُطالب ايضًا بفرائض مناسبة لتلك الحقوق. أَلا ترى مثلًا في بلاد الانكليز انَّ اعيان الدولة مع ما ينالون من الحقوق والامتيازات يقومون ايضًا باعباء المملكة ويلتزمون أداء ضرائب ومكوس لا تترتَّب على غيرهم

ونُلحق بهذه ابواب المساويات مساواة الفضل التي عمَّمها الدين المسيحيّ ونشر اعلامها في كلّ انحاء المعمور. وذلك انَّ السيّد المسيح رأى المظالم التي عمَّت الأمم وقلبت ظهرًا لبطن طبقات الناس حتى انَّ الاستبداد والكبرياء بأنفسها بقسم من البشر ان يعتبر القسم الآخر كعبيد وخدَم ليس لهم من الحقوق شيء سوى أن يكدّوا لمنفعة غيرهم ويضخّموا نفوسهم اطماعهم. فاراد لدكّ السجود ان يُعيد للانسان شرفهُ ويمحو من جبهته سمة الذلّ التي وسمهُ بها الظالمون وذلك بتعليمه للبشر التواضع والخضوع وقد باشر تعليمهُ بالعمل فانهُ اذ كان السيد والرب جعل نفسهُ كالعبد والخادم. قال لتلاميذه عزَّ وجلّ (لوقا ٢٢: ٢٧): «مَن أكبر المتكئ او الذي يخدم أليس المتكئ فانا في وسطكم كالذي يخدم». أجل انهُ أنزل نفسهُ منزلة الخدم حتى انهُ غسل ارجل رسلهِ وتواضع امامهم وهو الذي «اذ كان في صورة الله لم يكن يعتدُّ مساواتهُ لله اختلاسًا اخذ صورة العبد ووضع نفسهُ حتى الموت وموت الصليب».

وقد حرَّض تلاميذهُ مرارًا على مجانبة الترفّع وطلب التذلّل واذ سمعهم يومًا يتباحثون في أيّهم يُحسب الاكبر بكَّتهم على ذلك قائلًا (متى ٢٠: ٢٧): «قد علمتم ان اراكنة الامم يسودونهم وعظماءهم يتسلطون عليهم واما انتم فلا يكون فيكم هكذا ولكن من اراد ان يكون فيكم اوَّلًا فليكن لكم عبدًا» فهذه التعاليم وغيرها مثلها غيَّرت وجه العالم الوثني المملوّ جورًا وعسفًا فظهرت في الكنيسة مبادئ المساواة الصحيحة التي ادهشت العالم ولا تزال تدهشهُ الى يومنا هذا فكم من الاشراف وارباب الثروة واهل الترف والعزّ كفروا بكلّ ملاذّ الدنيا فصاروا عبيدًا لاخوتهم يتفانون في خدمتهم فيعالجون امراضهم ويرشدون جهالهم ويربّون صغارهم ويُعنَون بعجزتهم ولا يدعون عملًا شاقًّا الَّا تاسوهُ في سبيل الله ومحبَّة اخوتهم

تلك المساواة الانجيليّة التي جعلت الوفاً من البشر اشبه بملائكة الله لا يطلبون كالرسول (روم ٩ : ٢) الّا ان يكونوا مبسلين من اجل اخوتهم

*

فصّلنا ما يُراد بالمساواة الصحيحة ومتى يجوز للمرء ان يطالب بها ويتمنّاها غير انّ بعض اهل الفتن واصحاب المشاغب لا يرضون بما تقدّم فيجعلون كُنه المساواة في نفي كل سلطة وكل تباين واختلاف بين طبقات البشر يزعمون ان لكلّ الناس حقًّا واحدًا في المال والغنى والشرف والسلطة ليس بينهم رئيس ولا مرؤوس ولا شريف ولا مشروف حتى لو شاء احد الناس ان يطلب السلطة لنفسه او يمدّ يدهُ الى مقتنى قريبه لحقّ لهُ ذلك لأن المساواة الطبيعيّة على قولهم تسمح بذلك. هو المبدأ المجحف بكل سلطة الناقض لاركان كل دولة الرافع لأعلام كل ثورة وفتنة

قُلْ لي ناشدتك اذا ضربتَ الصفح عمّا سبق لنا من بيان وجوه المساواة الشرعية اين ترى للمساواة اثرًا. يولد المرْ في كوخ الفقراء كما يولد في بلاط الملوك ينشأ في بلاد وافرة الخصب واسعة الثروة كما ينشأ في القفار والبراري ليس لهُ الّا ما لا يكاد يقوم بأودهِ. فاين المساواة بين هذه المواليد. وايُّ انسان يستطيع ان يؤاخذ خالقهُ على فقرهِ ويُقرّعهُ على تفضيل غيرهِ عليهِ ؟

ثم يترعرع هذا الطفل الصغير وينمو يومًا فيومًا وهو تحت حكم والديه لا يَرَى بُدًّا من اكرامهما وطاعتهما والامتثال لاوامرهما. فان لساء عاقبوهُ وان عقَّ ادّبوه. فمن يزعم رعاك الله ان الوالدين يتعدّيان طورهما وانَّ للولد حقوقًا متساوية فيستطيع ان يخلع نيرهما ويخلد الى العصيان بحجّ المساواة. افتنزع المساواة عن الوالد حقوقهُ او تُبطل عن الولد واجباتهِ لعلّة وجودهِ؟ وكذا قُلْ عن الرجل والمرأة في البيت أليس للرجل الرئاسة في بيتهِ والتقدّم على امرأتهِ فليس ثَمَّ مساواة

وكما ترى عدم المساواة في العائلة تجدها كذلك في احوال المرْ وصفاتهِ واخلاقهِ وسائر امورهِ. فيكون زيد عاقلًا وعمرو جاهلًا. يكون ذاك صحيح البنيّة وهذا سقيمًا محمومًا بالامراض. يُعرَف ذاك بتوقّد عقلهِ وسعة فهمهِ وهذا بقلة إدراكهِ. الاوّل محظوظ ينجح بكل مساعيهِ والثاني سيّئ البخت لا يرى في ما يباشرهُ خيرًا. وُلد الاوّل من اسرةٍ عريقة في الشرف خدم اصحابُها الدولة فترقّوا الى اعلى المناصب ومولد الثاني

من عائلة خاملة الذكر لا حسب لها ولا نسب. فاين يا رعاك الله المساواة في كل ذلك الا ان يتب المرء على خالقه ويدّعي لعامة بأنّ له حقوقاً يخسها الله فظلمه فيها. لكنّه تعالى يجيبه على لسان رسوله (رو ٩: ٢٠): « تُرى من انت أيها الانسان المجاوب لله ألعلّ الجبلة تقول لجابلها لِمَ صنعتني هكذا. أليس للخزّاف سلطان على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وإناء آخر للهوان » . او يقول له كما قال رب البيت للفعلة الذين تذمّروا عليه اذ أعطى اجرة متساوية للذين لم يشتغلوا كشغلهم (متى ٢٠: ١٣—١٤): « يا صاح ما ظلمتك. ألم اكن على دينار شارطتك خذ ما لك وامضِ فاني اريد ان أعطي هذا الآخر مثلك أليس لي ان افعل بمالي ما اريد ام عينك شريرة لأني انا صالح » . فليس للمرء ان يُطالب ربّه بحقوق اذ ان كلّ ما ينالهُ العبد هو من فضله تعالى فينبغي له ان يشكره سواء اعطى كثيرًا ام قليلًا. كما قال الصيّاد:

سُبحان ربّي يُعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكة

او كما قال سندباد الحمّال:

فكم من سيد بلا شقوة يُنعَّم في خير فيّاض وظلّ
واصبحتُ في تعب زائد وأمري عجيبٌ وقد زاد حملي
وكلّ الخلائق من نطفة انا مثل هذا وهذا كمثلي
ولكنّ شتّان ما بيننا وشتّانَ ما بين خمرٍ وخلّ
ولست اقول عليك افتراء فانت حكيم حكمتَ بعدلِ

ثم ان الانسان بمجرّد مولده في زمن من الازمنة وبلد من البلاد يجد نفسهُ عضوًا من اعضاء جسم ادبيّ عظيم فيه الكبير والصغير والشريف والذليل والرأس والمرؤوس أفيستطيع هذا الانسان بحقّ المساواة ان يطمح ببصره الى مقام من يفوقونهُ رتبةً ويتوسّل بكل الوسائل ليبطلهم عن منازلهم ويتولّى هو مناصبهم. فلو تغلّبت مثل هذه المطامع على شعب لتفاقمت فيه الشرور وانتشر الفساد وسادت الفوضى واضحت السكنى مع الوحوش افضل من مساكنة البشر

فترى ان المساواة التامّة من الامور المستحيلة التي تنافي كل النظام الطبيعيّ والادبيّ. فان اعتبرت الطبيعة في كل اطوارها وجدت فيها من اختلاف الانواع وتعدّد الاصناف وتوفّر الاشكال ما يأخذ بمجامع الابصار ويذهل العقول الحيّرة ويجتذب

القلوب الى صانعها العظيم . لا بل خذ ما شئتَ من افراد الجنس الواحد فترى بينها بعض الاختلاف ما يزيدك عجباً بمكوّنها . أترأيت ورقةً من اوراق الشجر شبيهة بغيرها شبهاً تاماً ؟ هذه وجوه الوف وملايين من البشر وكلُّها تختلف بعض الاختلاف اما في اللون واما في تقاطيع الهيئة واما في الحجم . وليس هذا نقصاً بل كمالاً يبيّن بغنى الخالق الذي يخرج مخلوقاته كيفما شاء . ولا يستحيل عليه امر من الامور . ولما تأمّل الحكماء هذه الاشكال التي لا يفي بها احصاء في المخلوقات اتّفقوا على ان يحدّدوا الجمال الطبيعيّ « نظام المتنوّعات » يريدون انّ الجمال لا يتمّ في كائنٍ ما الّا اذا جمع بين النظام واختلاف الاقسام . مثال ذلك الجسم البشري الذي جمع في تركيبه كل شروط الجمال . قال الرسول بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنتس (١٢ — ١٤ — ٢٥) يصف بنية الجسد وارتباط اقسامه ونظام اعضائه : « انّ الجسد ليس عضواً واحداً بل اعضاء كثيرة فان قالت الرجل لأني لستُ يداً لستُ من الجسد أفلذلك ليست من الجسد . لو كان الجسد كلّهُ عيناً اين كان السمع ولو كان كلّهُ سمعاً اين كان الشمّ . والحال انّ الله قد وضع الاعضاء كلًّا منها في الجسد كيف شاء . ولو كانت كلّها عضواً واحداً اين كان الجسد . والحال انّ الاعضاء كثيرة والجسد واحد فلا تستطيع العين ان تقول لليد لا حاجة لي اليكِ ولا الرأس للرجلين لا حاجة لي اليكما بل ما يُحسب الاضعف من اعضاء الجسد هو ما تكون الضرورة اليه اشدّ . وما نحسبُ الاحقر من الجسم هو ما نشملهُ باعظم الكرامة وما يقبح منّا لهُ اعظم الاحترام . أمّا ما يجملُ منّا فلا يحتاج الى شيء لكنّ الله مزج الجسد حتى يخصّ العضو الناقص بكرامة اعظم لئلّا يكون في الجسد شقاق بل يكون للاعضاء اهتمام واحد بعضها ببعض فاذا تألّم عضوٌ تألّم معهُ سائر الاعضاء واذا أُكرم عضو فرح معهُ سائر الاعضاء . »

فللّهِ درُّهُ من وصف يصحُّ في جسم الجمعيّة البشريّة الادبيّ اكثر منهُ بالابدان . وكما انّ الحياة لا تثبت في الجسم اذا غلب عليه الشقاق وابى كل عضو ان يقوم بوظيفته الخاصّة فكذلك وبالاحرى الجسم الادبيّ فانهُ ينتقض كل نظامه اذا سعت الاعضاء بطلب المساواة واراد الصغير ان يحلّ محلّ الكبير . فان الله تبارك وتعالى بنى الهيئة الاجتماعيّة على اختلاف اعضائها فأعطى كل واحد ما يستفيد منهُ لمنفعته الخاصّة ولفائدة كل الجسم فترى هذا شديد البنية تامّ العافية الّا انهُ فقير بالمال لاصق بالدقعاء

وذاك واسع الثروة كثير الجدوى لكنّهُ مفتقر الى عَمَلة يساعدونهُ في استثمار مقتنياته. هذا بطل صنديد ورجل بأس ومراس لكنّهُ قليل السياسة والتدبير وذاك عاقل حكيم لولا انهُ منهوك القوى مهزول الجسم. وكذا قُلْ عن كل احوال البشر في كافّة امورهم فليس بينهم واحد يستغني عن اخيهِ فلو تساوى البشر في امورهم كلها من صحّة ومال وقوّة وادراك لتضعضعت اركان الهيئة الاجتماعيّة وعاش كل انسان منفردًا بنفسهِ واضحت عيشتهُ كعيشة الحيوان او ادنى منها لأن البهائم نفسها تتعاضد وتتساعد لادراك غايتها وردّ عدوّها عنها (١

فما قولك بعد هذا بالذين ينادون بالمساواة ؟ ألا ترى انهم يسعون في طلب المحال. فانهُ من المحال ان تجعل المساواة في الجمعيّة الاهليّة كما سبق. من المحال ان تُتّخذ المساواة في العيشة الاجتماعيّة اذ يختلف الناس في اهوائهم وصفاتهم واعمالهم وتربيتهم وانسابهم. فهَبْ ان ملكًا من الملوك يجمع يومًا كل رعاياهُ ويعطي كل فرد منهم بالمساواة قسمًا من املاك الدولة ومقتنياتها أفتدوم هذه المساواة يومًا واحدًا ألا ترى انَّ مواصلة المعاملات ومزاولة الاشغال بعد زمن قليل تُزيل تلك المساواة فيرجع هذا على ذاك اما بفطنتهِ واما بصفاتهِ الرابحة واما بهمّتهِ وعنايتهِ فيفقد هذا ما حظي من المال بكسلهِ وسوء تصرّفهِ ويُصاب ذاك بجسمهِ او بعقلهِ فيخسر كل مقتناه. وخلاصة القول انهُ لا يمرُّ على هذا التساوي أيام قلائل حتى تعود الثروة كما كانت سابقًا متوفّرة في ايدي البعض زهيدة في ايدي البعض الآخر

ومن المحال ان يدّعي البعض بالمساواة في الحقوق دون مراعاة طبقات الناس واهليّتهم واستعدادهم لها. أفيُعامل الامير كعاملة المأمور او يقام العالم النحرير مقام الجاهل المركّب. أليس للأسَر الشريفة التي خدمت الوطن مدّة اجيال متوالية خدماً عديدة انعاماتٌ وامتيازات لا تُعطى للعيال الحديثة التاريخ. او يُنزَّل الامام والكاهن والاسقف منزلة السوقة والعامّة. ألا يمتاز القائد الظافر باعداء وطنهِ عن الجندي الجبان. فلو زعم احد انَّ كلَّ هؤلاء متساوون بالحقوق لكذب وشهد على كذبهِ كلُّ من لم يختلَّ بعقلهِ

(١) راجع مقالة حضرة المنشيور يوسف الحكيم في تباين الخطوط بين الناس فانهُ من ابدع ما كتب في هذا الموضوع (المشرق ٥ : ٧٦٣)

ومن المحال ان تكون المساواة في السياسة . فانَّ سياسة البلاد على ايّ صورة برزت لا يمكنها ان تكون متساوية بين كل اهل الدولة . فان كان نظام الدولة ملكيًا مطلقًا فالامر واضح . وان كان ملكيًا دستوريًا او كان جمهوريًا فقط فالمساواة لا تصلح الّا على شروط وذلك باختيار اعضاء لمجلس المبعوثين . اما هذا الاختيار فلا بُدَّ ايضًا من تقييده بقواعد تجعلهُ مفيدًا لصوالح الجمهور نافعًا لنجاح الوطن . ويتمّ الامر اذا جُعلت لبعض المختارين امتيازات فوق سواهم على حسب ثروتهم او املاكهم او مراتبهم وعلى قدر ما يدفعون للحكومة من الضرائب والمال الاميريّ فانَّ مثل هؤلاء احرى بالانتخاب واحرص على اختيار مبعوثين جديرين بحفظ النظام وإصلاح البلاد من الصعاليك الذين يبيعون اصواتهم لكل مشترٍ ولا يهمُّهم أتجري الاحوال منتظمةً ام لا . وعلى كلّ حال لا يخفى على كل ذي عقل سليم انَّ صوت رجل همام ذي عقل راجح وعلم واسع وفضل سامٍ يفضل على صوت رجل خسيس جاهل خالٍ من كل فضل ومكرمة وهذا ما لحظتهُ بعض الدول في انتخابات مبعوثيها كبلجيكة مثلًا التي تخوّل بعض المختارين امتيازات حسب مقامهم او اشغالهم النافعة للوطن

هذا نظر اجلناهُ في المساواة لنبيّن للقرّاء ما وراء هذه اللفظة من المعاني الملتبسة فان حصرتها ضمن دائرة العقل والحكمة صحَّ معناها أما اذا اطلقتَ عليها من المعاني ما يردُّهُ الذوق السليم والحكم الصائب وتنفيه الطبيعة المستقيمة اصبحتْ وبالًا وكان شرُّها عظيمًا . والعاقل من رضي بما قسم الله لهُ من الخير وسعى قدر استطاعته في استثمار الوزنة التي تكرَّم بها عليهِ الخالق فان ضاعفها بالمتاجرة الشرعية والّا انتظر بصبر يوم المساواة العظيم الذي فيهِ يجازي الرب كلًّا على اعمالهِ فيطلب كثيرًا ممَّن أعطي الكثير وقليلًا ممَّن أعطي القليل . فطوبى للعبد الذي يجدهُ سيّدهُ ساهرًا على مالهِ امينًا في خدمته فيقيمهُ على جميع ما هو لهُ (لوقا ١٢ : ٤٤)